المدخل:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، وبعد

فهذه خواطر تدور حول طبيعة تكوين المجتمع السعودي، منذ أن نشأت فكرة إقامة دولة سعودية، متخذةً من كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيِّه محمَّد بن عبدالله ﷺ منهجًا، تسير عليه في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي، فكان أن قامت الدولة على ذلك، مما أوجد فيها نوعًا من التميُّز بين الدول المجاورة، وداخل المحيط العربي والإسلامي، من خلال تحكيمها للشريعة الإسلامية، التي اقتضت عددًا من الإجراءات والأنظمة والقواعد، التي كانت مجال توقُّف ونقاش مستمرٍّ من لدن جهات، لم تنظر إلى هذا النهج على أنه توجُّه يمليه المنهج، وليس مجالاً للتنظير أو التنازُل، لاسيَّما مع سعة الأفق في فهم المنهج، وتبنِّي مفهومات السماحة والاعتدال والمنهج الوسط في النظر إلى الأحكام الشرعية، على اعتبار أن مقاصد الأحكام مصالح الأنام. وأي حكم ليس فيه مصلحة للأنام فإنه مشكوك في ثبوته في مصادر التشريع الإسلامي، أو أن تطبيقه قد شطَّ يمينًا أو يسارًا، وعلى اعتبار أن هذا الدين لم يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولم ينهَ عن شيء إلا وفيه مضرَّة للفرد والجماعة، مهما بدت عليه المنفعة، فإن المضرَّة فيه هي الغالبة.

من هنا صار المجتمع السعودي مجتمعًا متميِّزًا، تنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة خاصَّة، لاسيَّما أن فيه الحرمين الشريفين، وفيه قيادة سياسية وعلمية تخدم ما يومئ له وجود هذين الحرمين الشريفين، فهناك خدمة جليَّة واضحة، بالعمارة الحسيَّة والمعنوية، لهذين الحرمين الشريفين، وبالتالي لحجَّاج بيت الله تعالى والمشاعر المقدَّسة، وزيارة مسجد رسول الله ﷺ، والسلام على الحبيب – عليه الصلاة والسلام – في المدينة المنوَّرة، وهناك خدمة لكتاب الله تعالى، من حيث حفظه وطباعته وترجمة معانيه وتوزيعه، والمسابقة على حفظه نصًا وروحًا. وهناك خدمة لسنَّة رسول الله ﷺ وسيرته العطرة، من خلال مراكز بحوث السنة والجوائز التي تعطى للمعتنين بالحديث النبوي الشريف.

هناك توكيد على التمسُّك بهذا المنهج، من حيث الخدمات التي تقوم بها الدولة، حكومةً وشعبًا، لضيوف الرحمن في كل عام، ومن حيث إسباغ الروحانية على الشعائر الإسلامية في الصلوات الخمس، وفي شهر رمضان المبارك، ومن حيث تبنِّي منهج الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن حيث الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا في شتَّى مناحي الحياة، حيث جُعل الشرع الحنيف هو الحَكَم في هذه الشؤون كلها.

الحقُّ أن المملكة العربية السعودية لم تنفرد بهذا النهج، دون العالم الإسلامي، ولكنها جسَّدته مثالاً يحتذى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين/ العشرين والحادي والعشرين

الميلاديين، حيث طغى، أخيرًا، التوجُّه إلى تبنِّى منهج معولم، تذوب فيه الثقافات، وتنصهر المبادئ والقناعات، في نماذج مصاغة من جهة واحدة، جعلت من ذاتها وصيَّةً على العالم، في ضوء تنامي هيمنة القطب الواحد، وإملائه قناعاته التي لم تخلُ، ولا ينتظر منها أن تخلوَ، من خلفية ثقافية مستمدَّةٍ من دين ما، مهما كان الضخُّ نحو علمنة المجتمعات والدول. وبالتالي اكتسبت المملكة العربية السعودية قدرًا من الخصوصية الدافعة، لا تلك الخصوصية الراجعة الحاصرة، التي يختبئ وراءها من يخشون الإقلاع.

تأتي هذه الخواطر لتؤكِّد على هذا النهج القويم، لا من حيث التوكيدُ على "ضرورة" المضي في الخصوصية والتميُّز، والتفرُّد بذلك، لأن المجال يسمح بكل رحابة في تبنِّي هذا النهج من الخصوصية، إذ إنه ليس وقفًا على المجتمع السعودي، بل إن السعوديين يدعون إليه، ويرحِّبون بمن يتمثَّله على المستوى الحكومي، والشعبي قبل ذلك، ولكن من حيث طرحُ عدد من الشواهد التي تؤيد هذه الخصوصية على مستويات عدَّة.

كانت هذه الخواطر وقفات أسهم بها كاتبها في الصحافة السعودية، ورئي أنها تستحقُّ إعادة النظر، والتطويع للزمان والتطوُّرات، فأُعيد تحريرها، وسعيت إلى توثيقها بالمراجع التي استقيتُ منها معلوماتها، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. تبع هذا إعادة النظر فيها، من حيث الأفكارُ والصياغة والتوثيق.

هي مناسبة أتقدَّم فيها بالشكر الجزيل لكلِّ من أسهم في تقويم هذه الوقفات، ووصولها إلى ما هي عليه الآن. وأخصُّ

بالشكر والامتنان الصديق العزيز الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان على قراءته الفاحصة، وإبدائه مرئياته التي أعانت على استقامة هذه الوقفات استقامةً نسبية.

علي بن إبراهيم الحمد النملة

الرياض – رمضان المبارك

١٤٢٧هـ/أكتوبر ٢٠٠٦م

obeikandl.com